كي لا أنسى

بقلم: رياض شلال المحمّدي

جالسٌ في غرفتهِ الكئيبةِ قبالةَ الشبّاك ينفثُ بقايا دخانٍ، وشيئاً من تأمّلاتِ الدّجى.. تعتريه كلّما لاحَ وميضٌ يضيء من الشوارِدِ ما تولّى. وقد تراخت إحدى النّوافذ خاليةً من الزّجاج، منها يسمع ما كان يتواردُ إلى الآفاقِ من أزيزٍ تقشعرّ منه قلوبُ الواجمين، أو رشقات رصاصٍ من هنا وهناك، أو صوتُ منادٍ، وهو يقرأُ قصاصةً جاءته ينعى بها أحد الذين سقطوا من رفقائه أو أقربائه أو جيرانه .

هنا دلفت إليه أمّهُ تومئ بيدها لا تريد إيقاظ الصّغار النّائمين،

هرع مسرعاً، وهو لا يلوي على شيءٍ سوى حبّه الجارف لها عساه يكون من البارّين، إذا بها تشكو من ألمٍ في الفؤاد أوحاه داءُ " ضغط الدّم " الذي قد لا يمهل صاحبه .

خرج – والظلام الدّامس يزيد الداءَ داءً – لعلّه يعثر على مَن يسعف أمّه، وأنّى له ذلك، وحظر التّجوّل يحرق ما تبقّى من

آمال الوقت الثّمين، لكنّه خاطر بروحه كي يصل إلى أقرب

نقطة تفتيش، وقبيل اقترابه بخطوات عاجلته رصاصة مرّت من فوقه تنبيهاً. توقّف وأخذ يلوّح بخرقةٍ بيضاء بيده الوحيدة،

حتّى إذا وصل، وهو يُتمتمُ بالكلام مع أحد المترجمين، قالوا له:

اذهبْ وسوف نبعث بالإسعاف.

رجع وجلس مع أمّه، مرّةً يصبّرها ببعض خلجاتٍ، أو يحكي عن الخاليات أو، أو.. وهي ترنو إلى وحيدها، والدمع يكادُ يفرّ من أحداقها .

ساعةٌ، ساعتان، وثلاث، ولا من مسعفٍ، حتّى إذا بزغ الفجرُ، وانقضى حظر التّجوال أسرعوا بها إلى المشفى، وقد أمسكتْ هذه المرّة عن الكلام. قال الطّبيبُ: لقد تأخّرتم كثيراً .. وما هو إلا زمنٌ قليل حتّى فارقتْ الرّوحُ السّعيدة الجسدَ المتعب، راحلة إلى بارئها تخبره – وهو أعلم – بما فعل المجرمون بفلّوجة المؤمنين وأهلها الصّابرين..

آبَ إلى غرفته ونافذته الحزينة، ولكن ليسمع هذه المرّة نعيَ أمّه.